

اعداد / أ.د. مختار رحاب

(الدرس 8) : الأنثروبولوجيا ودراسة موضوع القرابة:

تعريف القرابة:

1- لغة: قرابة: مصدر قرب: قرب في النسب، قرب منه واليه، واقترب مني، وقربته فتقرب، وقاربه، وتقاربوا واقتربوا، وهو يستقرب البعيد، وتناوله من قرب ومن قريب، ونزل قريبا، وبينهم قربي وقرابة، وهو قربي وقرابتي، وهم أقربائي وأقاربي وقرابتي، وبيننا نسب قريب وقراب. وقال:

فلما أن رأيت بني علي عرفت الود والنسب والقرابا 1

وكان ابن خلدون قد تطرق لموضوع القرابة وأبرز الأساس الذي تقوم عليه، وكذا الوظائف التي تؤديها، فينظر إليها على أنها طبيعية لدى البشر، تقوم على العصبية، حيث يتعاون ذوي القرابة في دفع ما ينزل عليهم من تحديات أو مضار، فهي تشكل نوعا من التضامن، وكلما كانت القرابة متصلة وقريبة كلما كانت قوية وشديدة، وزادت من التحام أصحاب القرابة، والعكس تماما حيث تضعف رابطة القرابة كلما حصل التباعد. ويمكننا من خلال نظام القرابة إدراك ومعرفة طبيعة علاقات الاتصال خصوصا من خلال الأسرة والزواج، وكذا القواعد والقوانين التي تحكمها.

ومن أقوال العلامة عبد الرحمن ابن خلدون في هذا السياق: " ذلك أن صلة الرحم أمر طبيعي في البشر، إلا في الأقل، ومن صلتها النعرة على ذوي القربى، وأهل الأرحام أن ينالهم ضيم أو تصيبهم هلكة، فإن القريب يجد في نفسه غضاضة من ظلم قريبه أو العداة عليه، ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمهالك: نزعة طبيعية في البشر مذ كانوا، فإذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا بحيث حصل به الاتحاد والالتحام كانت الوصلة ظاهرة، فاستدعت ذلك بمجرد ما ووضوحها، وإذا يعد النسب بعض الشيء، فرما تتوسي بعضها، ويبقى منها شهرة فتحمل على النصرة لذوي نسبه بالأمر المشهور منه، فرارا من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه من ظلم من هو منسوب إليه... " 2

1 - أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، لبنان، 2006،

2 - ابن خلدون: مقدمة العلامة ابن خلدون، بيروت، دار و مكتبة الهلال، 1988

اعداد / أ.د. مختار رحاب

والقربة تتمظهر في العلاقات بين الأفراد في إطار الروابط الأسرية ، وهذه العلاقات تحدها ثقافة الجماعة أو المجتمع، وإذا كانت العلاقات القربية في كثير من المجتمعات الإنسانية متشابهة، إلا أن هناك تباين وفروقات بين الثقافات بخصوص قواعد القربة والأنماط القربية، ويؤدي نظام القربة جملة من الأدوار في حياة الأفراد والجماعات لعل من أبرزها صناعة الاختلاف بين الجماعات من ناحية النسب، وتوزيع الجماعات في شكل تكتلات أو زمر، كما تؤدي القربة دورا في كيفية انتقال الملكية سواء الرمزية أو المادية بين الجماعات والأجيال، هذا بالإضافة إلى القواعد الإلزامية التي تكتسي غالبا صفة القدسية والتي يتبعها الأفراد ويلتزمون بها تجاه أقاربهم.

وبالنسبة لأهمية موضوع القربة في البحث الأنثروبولوجي فيرى وليام ستيفن أن الباحث الأنثروبولوجي يعنى بدراسة النسق القربي، ونمطية العلاقات القربية يمكنه تفسير جوانب مهمة من تطورات الحياة الاجتماعية، من خلال دراسة السلوك القربي النمطي داخل العلاقات القربية المختلفة، حيث تعطي العلاقات القربية النمطية نوعا من الانتظام والقدرة على التنبؤ بالإضافة إلى أن الجماعات القربية تخلق روابط اجتماعية، ونوعا من التكامل في المجتمع، وخاصة في المجتمع التقليدي، نظرا للدور الذي تقوم به روابط القربة بمعناها الواسع في حياة الأفراد والمجتمع ككل.¹

ويعتبر موضوع بنى القربة من المسائل الكبرى في علم النياسة، خصوصا في المراحل الأولى لما كانت النظرية التطورية تحقق السيادة و الريادة في المجال العلمي، حيث برز واشتهر باحثون في مجال القربة نذكر منهم هنري لويس مورغان، وماكلينان، فكانت لهم مساهمات قيمة في مجال البحث الاستقصائي الأنثروبولوجي، بل حتى أن رائد البنيوية الفرنسية كلود ليفي ستروس لما تناول موضوع القربة لاحقا، أعلن صراحة إعجابه العلمي الشديد بما توصل إليه مورغان من نتائج بحثية في موضوع القربة، حيث أكد أن جملة ما توصل إليه هو الذي شكل الأرضية القاعدية لنشأة الأنثروبولوجيا الاجتماعية، والدراسات القربية لاحقا. وبالتخصيص كتابه المسمى : " سساتيم العلاقات الرحمية والولاء في العائلة البشرية." عام 1871

والواقع أن الدراسات والأبحاث في موضوع القربة كانت قد شهدت بعد الكتاب الذي أشارنا إليه آنفا نموا كبيرا بحيث أدى ذلك إلى تكاثر موضوعات البحث، مما أضفى على هذا الاختصاص طابعا

¹ - فاتن شريف: الأسرة والقربة: دراسات في الأنثروبولوجيا الاجتماعية، الإسكندرية، 2006.

اعداد / أ.د. مختار رحاب

تقنيا جدا في بعض الأحيان فضلا عن مصطلحات خاصة به، وفيما يلي إيراد لبعض هذه الموضوعات:1

- دراسة العزوة وتنظيم الجماعات النسبية: "بطن، عشيرة" إلى جانب وظائفها الاقتصادية والارثية والسياسية.

- دراسة صيغ الإقامة التي تضم مختلف الجماعات القرابية.

- دراسة الزواج واختيار الشريك اختيارا مدبرا إلى هذا الحد أو ذلك.

- دراسة المصطلحات القرابية، أي الصيغة التي يعتمدها الأقرباء والأحلاف لتسمية بعضهم بعضا.

- وأخيرا دراسة المواقف، إذ أن كل علاقة قرابية تنطوي عادة على سلوكات منمطة: "احترام، مزاح... الخ"

- وتبقى أن أية معرفة بالبنى القرابية، ولو كانت مقنضبة، تستوجب اطلاعا محكما على المصطلحات والمفاهيم الأولية.

وبعد لويس مورغان كان قد اهتم العديد من الأنثروبولوجيين بموضوع القرابة كما رسل موس وراي كليف براون، وكانت القرابة كموضوع بحثي في الأنثروبولوجيا قد شهدت نقلة نوعية مع الأنثروبولوجي الفرنسي كلود ليفي ستروس " 1908-2009 : فكانت من جملة مؤلفاته كتابه الشهير حول البنى الأولية للقرابة. وكانت الدراسات والأبحاث الأنثروبولوجية حول القرابة قد توزعت حسب الاهتمام ومنطلق الأبحاث، وفيما يلي أبرز محاور البحثية في مجال القرابة:

1- أنواع الجماعات القرابية:

في كل المجتمعات الإنسانية يرتبط الأعضاء الذين يشكلون جماعات بروابط قرابية، وغالبا ما تصنف القرابة استنادا الى التطور الذي تعرفه الأسرة والذي غالبا ما يؤدي الى تشكل جماعات أو قيام بنيات مختلفة، وتوجد عدة أنواع من الجماعات القرابية، نوردتها بإيجاز:

اعداد / أ.د. مختار رحاب

- الأسرة النووية وتسمى بالعائلة الأولية: ويشير معنى العائلة الأولية إلى وجود زوجين رقيقة أطفالهم يشكلون مجتمعين أسرة صغيرة، وهذه الأخيرة تشكل النواة الأولى لأي نسق قرابي. وتشكل الأسرة النووية للأبناء في مرحلة أولى أسرة التوجيه، وفي مرحلة لاحقة أسرة التناسل أو التكاثر بعد زواجهم، والتفاعل بين أفراد الأسرة النووية تنتج عنه ثلاث مستويات من العلاقة: فهناك العلاقة بين الزوجين والقائمة على التقاهم و أداء الأدوار كالإنجاب عن طريق الاتصال الجنسي بين الزوجين، وكذا رعاية الأطفال وتلبية حاجاتهم المادية والمعنوية، والمستوى الثاني هو العلاقة بين الآباء والأبناء وهنا يبرز دور الزوجين في عملية التنشئة الاجتماعية ونقل الثقافة للأبناء، أما المستوى الثالث فهو يتجسد في العلاقة بين الأبناء داخل الأسرة الواحدة حيث يسود التفاعل المنظم عن طريق تحديد الحقوق والواجبات لكل فرد، وغالبا ما يتحد أفراد هذه الأسرة ضد التهديد الخارجي، وفي الوقت ذاته تسود بينهم أفعال التنافس، وانطلاقا مما سبق يمكننا القول أن الفرد في الأسرة النووية أو الأولية قد يكون زوجا أو زوجة، أو أبا أو أما، أو ابنا أو بنتا، أو أخا أو أختا. ويشتمل هذا النمط جيلين هما جيل الآباء والأبناء.
- ، الأسرة النووية الممتدة، الأسرة المشتركة، العشيرة، وحدات الزواج الداخلي.

القرابة في المجتمعات الحديثة:

كان من بين علماء الاجتماع المعاصرين الذين تطرقوا لموضوع القرابة، نجد عالم الاجتماع الأمريكي تالكوت بارسونز، حيث تناول بالتحديد مفهوم العائلة النووية المنعزلة مدخلا هذا المفهوم والموضوع إلى مجال العلوم الاجتماعية، وقام بإسقاط المفهوم على واقع المجتمع الأمريكي، وتوصل إلى أن المفهوم يصف بدقة النظام القرابي في المجتمع الأمريكي، ولاحقا أصبح الاهتمام البارسونزي حول نظام القرابة محل اهتمام الباحثين المختصين في علم الاجتماع العائلي. وظلت إشكالية انعزال العائلة النووية بالمجتمع الأمريكي عن القرابة الممتدة، أم الأمر عكس ذلك قد شغلت حيزا معتبرا من اهتماماتهم البحثية.

إن من أبرز المحددات التي تصنع وتهيكل المجال السياسي لدى الكثير من الجماعات والبلدان هي القرابة، فغالبا ما تتحدد معايير وطرق الارتقاء إلى المناصب السياسية الأعلى من خلالها، فالمرشح القوي غالبا ما يكون ابن جماعته، أي أنه ينتسب ويستند إلى قرابة قوية بملكيتها و أفرادها و تحالفاتها وولاءاتها. كما هو سائر في الأقوال، لا أشياء لمن لا قرابة له و معلوم أيضا إلى أي حد يخدم الزواج

اعداد / أ.د. مختار رحاب

ببعده الاستراتيجي المصالح السياسية تكاد تكون متماثلة في العديد من المجتمعات وان اختلفت الثقافات وبالتحديد للحكام سواء أتعلق الأمر بفرانسوا الأول، أو لويس الرابع عشر أو الملوك الزندية السودانية أو زعماء كاليدونيا الجديدة¹ ولمصطلحات وتسميات القرابة أهمية كبرى في تحديد العلاقات وضبط السلوك الاجتماعي

نماذج علاقات القرابة: 2

تتطوي عبارات القرابة على نماذج من العلاقات أو التصرفات المختلفة الناتجة عن شبكة معقدة من أواصر القرابي الحقيقية أو الوهمية، ويمكننا تسجيل أربعة ممارسات رئيسية:

الاحترام:

وهناك من يسميه القسر نلاحظه في السلوك التقليدي للأبناء في حضور والدهم أو والدتهم: فلا يجدر بهم أن يتصرفوا أو يتحدثوا أمامهم بخفة، خاصة في المسائل الجنسية...

الألفة:

تظهر غالبا تجاه الجدود حيث يمكن للحفيد أن يمازح جده أو يسخر من بعض تصرفاته، وقد يلعبان معا، والمبدأ البنوي السائد هنا هو أن كل جيل سوف يستعاض عنه مع الوقت بجيل أحفاده، وهكذا يبدو هذان الذيلان أمام نوع من المساواة الاجتماعية، والأمر ذاته يحصل بين الخال وابن أخته.

العلاقات المحظورة أو المحرمات

والتي تنشأ في المقابل تجاه أهل الزوجة: فقد يصل الأمر أحيانا الى حظر تناول الطعام معهم وحظر كل احتكاك جسدي أو كلامي، وهي تختلف من مجتمع الى آخر، وكمثال على ذلك في بعض المجتمعات الافريقية يتوجب على الصهر الاختباء عند ظهور حماته، والسبب في ذلك أنها أعطته ابنتها التي هي زوجته وبالتالي يتجنب أي اتصال كي لا يقع في أي خلاف معها، وهذا يظهر بوضوح أن هذه العادة تهدف الى سمو بالاحترام الى أعلى درجاته.

علاقات أو قرابات الدعابة

¹ - RIVIERE, C.- Introduction à l'anthropologie.-

اعداد / أ.د. مختار رحاب

والتي تعتمد على منهجية للألفة " مثلما تعتمد السابقة على منهجية للاحترام" فبعض نماذج الأقارب لا يلتقون الا لكي يتأكدوا ويتشائموا بكل حرية، والعلاقات هذه تشبه الى حد بعيد مظاهر العداوة المصطنعة التي تشهدها احتفالات الزواج، فالمجموعة التي تفقد بنتا تهين مجموعة الزوج كتعويض عما خسرت، ويظل دور الاهانة الطقوسية هو تذكير بالتضامن واطهار له.